مجلة التاريخ المتوسطي. المجلد 03، العدد 02. شهر ديسمبر 2020. ص: 144 – 155.

الرِّحلات العلمية التلمسانية الوافدة على الأزهر الشريف ودورها في ربط أواصر التواصل الثقافي بين المشرق والمغرب ما بين 962هـ/ 1555م ـ 1107هـ/ 1699م

Tlemcen scholarly trips to Al-Azhar and their role in linking the bonds of cultural communication between the East and the Maghreb between 962 H / 1555 AD - 1107 H / 1699 AD

محمد بومدين

طالب سنة رابعة دكتوراه

جامعة أبو بكر بلقايد–تلمسان

الإيميل: mohammed.boumedine@univ-Tlemcen.dz

ت. الارسال: 20. 10. 2021	ت. المراجعة: 15. 11. 2021	ت. القبول: 04. 12. 2021

الملخص:

تسعى مادة هذا المقال إلى تسليط الأضواء على العلاقات العلميّة التي جمعت بين علماء تلمسان ونظرائهم المصريّين، والتي مهدت البساط لتفعيل مجريات التأصيل العميق للصلات العلميّة ما بين **962هـ/ 1555م ـ 1107هـ/ 1699م**، وما شهدته هذه الأعوام من تركيز على الرِّحلة العلميّة من قبل علماء تلمسان صَوبَ الحواضر المصرية، وبالأخص الجامع الأزهر بالقاهرة الّذي جذب برقي عُلومه ومَشيختَه، نُجباءهم، على شكل وشائج علميّة لم ترق إلى مصف الرسميّة، وإنَّما كانت روابط مثقَّفين: **علماء، متصوفة، فقهاء**...، في وقت لم تكن لتعطّلات التَّواصل السياسي من شأنها أن تقف كمطبّات وحواجز أمام هذا المسعى وأدواته الخارقة للحدود السياسية المفتعلة، ليبقى في خِضمِ ذلك طلب العلم والإجازة من أفذاذ الأمّة ورُكوبِ هول الصِّعاب ومشاقِ الإفادة والاستفادة، القناة الوحيدة الّتي أبت الانقطاع والاستئصال، كحتمية تاريخية، باتت من الضروري اليوم بيان أثرها الثقافي بالبحث والاستكشاف من الرِّحلات الحجازيّة خلال العصر الحديث، عبر اتباع المنهج التاريخي السردي، الذي يستقصي الأثر العلمي والفكري لهؤلاء إلى العلماء في تلك البقاع الثقافية خلال الفترة محل الدراسة.

الكلمات المفتاحية: تلمسان؛ الأزهر الشريف؛ التّواصل الثقافي؛ سنوات **962هـ/ 1555م ـ 1107هـ/ 1699م**.

Abstract:

This paper examines the relations that brought together the scholars of Tlemcen and their Egyptian counterparts, and paving the way for the continuation and deepening of scientific relations between **1555 and 1699**, and scholarly trips, during this period by many Tlemcen men to Al-Azhar, which attracted them thanks to its teachers and their-outstanding knowledge. These relations were not official, but were relations between intellectuals:, **scholars, Sufis** ..., at a time when political relations were did not disrupt or stop this scientific communication and the pursuit of knowledge, Therefore, this study attempts to show the cultural impact of these scholars through the Hejaz journeys during the modern era, by using the narrative historical method.

Key words : Tlemcen ; Al-Azhar Al-Sharif; cultural communication; between **1555** and **1699**

المؤلف المرسل: محمد بومدين، **الإيميل**: boumedinem999@gmail.com

مقدمة:

يعدّ التمسك بالمعالم الدِّينية والدُّنيوية في المشرق والمغرب، أهم مقوم من مقومات الشخصية الجزائرية وهُويتها، والتي ارتسمت مظهراتها مع الكثير من العلماء التلمسانيين الّذين ساهموا إسهامًا فكريًّا وعلميًّا كبيرًا في تلك الصروح ومنشآتها التعليمية الراقية بمشايخها، ومناهج علومها المزدهرة التي استهوتهم، رغم مهاراتهم وما وصلوا إليه من درجات تفوّق في مختلف مجالات العلوم العقلية والنقلية.

وعلى هذا الأساس، شاركت تلمسان العديد من عواصم دول المشرق الإسلامي في الميادين العلميّة، كالحرمين الشريفين، وبغداد، وبلاد الشام، وعلى وجه التحديد القاهرة الّتي ولئن كان التواجد العلميّ التلمسانيّ فيها يضربُ إلى ما قبل العهد العثماني، فإنَّ هذا العهد الأخير قد عرفت فيه هذه الحاضرة العلميّة، موجات كبيرة ومتسلسلة من أعمدة العلم التلمسانيّين، في حركيّة علميّة حجازية كثيفة بين الحاضرتين، حفلت بأخبارها العديد من كتب التراجم، والطبقات، وغيرها من أنواع المصادر المعاصرة ممَّن تحدّثت في سِيرِعلماء تلمسان الأزهريين، وجعلت منهم نقطة محوريّة وعنصرًا فاعلاً في تلك الأمصار خلال القرن 11هـ/17م.

وبناء على ماسبق، تبلورت في أذهاننا أسئلة عديدة لا حصر لها، قادتنا إلى الرغبة في المساهمة الجادة في هذا الحقل الثقافي، بورقة علمية موسومة بـ: الرِّحلات العلمية التلمسانية الوافدة على الأزهر الشريف ودورها في ربط أواصر التواصل الثقافي بين المشرق والمغرب ما بين 962هـ/ 1555م ـ 1107هـ/ 1699م. والتي سنسير فيها على منوال الدّراسات البيوغرافية في سير الأعلام ومسيرتهم، بالارتكاز على الكرونولوجيا التاريخية ونمطيتها ذات التسلسل الزمني في تتبع تاريخ الأعلام منذ ميلادهم إلى غاية وفاتهم، مرورًا بمنجزاتهم العلمية والفكرية، طمعًا منا في تقديم إضافة علمية رصينة، ولو بالنزر القليل الّذي هو بحوزتنا من معلومات ومعطيات تاريخية، قد توجهنا إلى اِلتماسِ الإجابة عن الأطروحات السالفة الذكر، وغمزات إشكالاتها المتتالية، عبر الشّكل ذِي الطرز المنهجي والمعرفي الوارد أدناه:

1. خصائص الرِّحلة العلميّة التلمسانية ودوافعها بين المغرب والمشرق:

عاشت تلمسان خلال العهد العثماني مرحلة صعبة من تاريخها الطويل، جراء سياسة أصحاب القرار بها من الأتراك العثمانيين،وممارساتهم التي ولئن أشاطت الأخضر واليابس، إلاَّ أنها هيأت لهم أسباب النّفور والهِجران إلى موطن الابتكار

والإبداع العلميَ في الحرمين الشريفين والأزهر الشريف[1]، اللّذان ارتقوا فيهما إلى مصاف المبرِّزين والمجتهدِين في غير واحد من أفانين العلوم، ما جعل الكثير من شيوخ وطلبة تلك الحواضر العلمية، يقبلون على مجالسهم العلميّة لقطف ورد الأخذ العلمي الأصيل، في إطار التبادل الثقافي بين المشرق والمغرب، الّذي بات وقتئذ ضرورة ملحة لكل عالم أراد مطارحة أفكاره، وتطويرها، ومناقشتها مع غيره من جهابذة الزّمان بواسطة الرّحلة الحجازية التي وَسَمَت تلك الحركية العلمية في مراميها وأهدافها الدِّينية والدُنيوية.

1.1. تعريف الرِّحلة العلمية الحجازية:

الرِّحلة بمفهومها الواسع، هي مشتقة من الارتحال والانتقال من مكان لآخر؛ لتحقيق هدف معين، استنادًا لما جاء في "لسان العرب" (إبن منظور، (ج24)، 1990، ص: 1609)، على أن الرحلة مأخوذة من مادة: ر، ح، ل: "(...) أي الأشخاص والإزعاج، والرحلةُ من الإبل: البعير القوي على الأسفار والأَحمال (...)، وارتحل البعير رحلةً، سار فَمضى، ثُمَ جرى ذلك في المنطق حتَّى قيل: ارتحل القوم عن المكان ارتحالا (...)"، ومن كل ذلك تشكلت أنواع الرِّحلات وأنماطها، والتي منها الرِّحلة العلميّة الحجازية، النابعة من صميم طلب العلم والمثابرة عليه(محمد فهيم، 1978، ص: 59).

2.1. دوافع هجرة علماء تلمسان إلى حواضر المشرق الإسلامي:

وإلى جانب ينابيع الرِّحلة العلميّة وأصنافها المختلفة، نُظِمَت هذه الرِّحلات في قالب نثري وشعري، ذكرُ فيه الحجاز والتشوق إليه، ودعا مؤلّفوه العلماء على أخذ العلم من أصحابه، وضرورة توثيق مروياتهم، ونقولهم، بالتحقيق، والتدقيق، وتحمل تعب لقاء المشيخة، جعلت الخلف تسير على هذا الطريق، ليصدق فيهم ما قيل على لسان رواد هذا الفن الأدبي من شيوخ وعلماء المغرب والأندلس، في وجهتهم الوجيهة التي كانت بادئ دي بدء مكة، للحجة والعمرة، ثم السير إلى بلاد الشام، والحجاز، ومصر، لالتقاء أساتذة أجلاء(نواب يوسف، 1996، ص: 46)، تحولت إلى صدى عالمي يستدعي المجِيز والمستَجِيز(نواب يوسف، 1996، ص: 46).

[1] **جامع الأزهر**: هو جامع وجامعة، أنشئ على يد "**جورج الصقلي**"عندما تم فتح القاهرة عام **378هـ/ 970م**، بأمر من"**المعز لدين الله**" أول الخلفاء الفاطميين بمصر. وقد اختلف المؤرخين في أصل تسمية هذا الجامع، الّذي سمي في البداية بـ: "**المنصورية**"، ثم أطلق عليه مسجد "**قاهرة**" بعد تأسيس المدينة، والراجح أن الفاطميين سموه بالأزهر تيمنًا بفاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم. والأزهر معناه "**المشرق**" وهو صيغة المذكر لكلمة الزهراء، ويعد هذا المسجد ثالث أقدم المساجد الجامعة للعلم والعلماء بعد القيروان والقرويين. (خفاجي، 2012، ص: 67).

وفي خِضمِّ ذلك، صار الإعتقاد السائد لدى سادة العلماء المغاربة هو أنّ شخصيّتهم العلميّة لا تكتمل إلا بمطارحة المشارقة، وهذا هو سِرُّ كثرة الرّحلات نحو المشرق، وقلّتها نحو المغرب، فشهاب الدين المقري ذكر ثلاثة مائة وسبعة راحل أندلسي إلى المشرق، بينما لم يذكر من الرحّالة المشارقة إلا حوالي ست وثمانون راحلاً فقط(المقري، نفح الطيب،(ج2)، 1998، ص: 5)، ولا يُفَسَّرُ هذا إلا بشعور المغاربة بالتلمذة للمشارقة، فالضرورة تدعو إلى شد الرّحال إليهم، ولو بَعُدَ المكان، وطال الزمان، وتبدَّدت سماؤه بفعل مفرزات أحكامه المستجدة على جميع المستويات السياسية، والعسكرية، والثقافية، وتطوراتها القاسية جدًا على أهل العلم بتلمسان طيلة الفترة العثمانيّة.

وعليه، فإن الدافع العسكري المتمثل في الضغط الأوربي على سواحل المغرب العربي، كان بمثابة «القشة التي قصمت ظهر البعير»، كما يقال، في ظل الأوضاع الثقافية المتقهقرة داخليًا مع نهايات الفترة الوسيطة وبدايات رديفتها الحديثة بتلمسان، ممَّا أدى بالعديد من علمائها أن يتركوا وطنهم في حركتي هجرة كبيرتين إلى القاهرة والإسكندرية، ومنطقة طولون بمصر، أوّلهما حدثت إبَّان القرن 10هـ/16م، والثانية في القرن 11هـ/17م(عبد المعطي، 2008، ص: 126). والتي لا يمكن اعتبارها في أي حال من الأحوال وحدها من الأسباب الّتي حملت نخبة تلمسان على اختيار المشرق وما له من امتيازات الرِّحلة والاستقرار، كالحج والتعليم.

1.2.1. الحج والتعليم:

إنَّ فريضة الحج في الإسلام، كانت من أعظم بواعث السفر لآلاف من المغاربة إلى الحجاز، وبعد قيامهم بهذه الشعيرة بالحرمين الشريفين، كان جلّهم يزورون المقامات المباركة بالمشرق، كالمسجد الأقصى بالقدس، وقبر إبراهيم الخليل في حبرون، ثم يعرجون على دمشق، ومدائن أخرى من الشام، وطالما زاروا بغداد عاصمة العباسيين بالعراق، وفي رجوعهم يقفون برهة بمصر حيث الجامع الأزهر، الّذي كان جامعًا وجامعةً علميّة تتوسَّط العالم الإسلامي(الموافي، 1995، ص: 28).

2.2.1. موقع مصر الوسط بين عدوة المغرب والحجاز:

ويعدّ الموقع الجغرافي للحضرة المصريّة، الّتي تتوسط عدوة المغرب من جهة والمشرق الإسلامي من جهة أخرى،من بين الأمور التي ساعدت على زيادة الرغبة في الرّحلة عند المغاربة و الاهتمام بها ولهذا انتظمت رِحلاتهم، الأقطار المختلفة شرقًا، حاملين مشعل أسلافهم في تفعيل وتجسيد أواصر التلاقح العلمي والفكري الذي برزَت معالمه بُروزًا ملفتا للنظر في القرن 11هـ/17م.

2. التواصل الثقافي لعلماء تلمسان في الأزهر الشريف من النصف الثاني للقرن 10هـ/16م حتى النصف الأول من القرن 11هـ/17م:

إن التواصل الثقافي في غايته ومقاصده، هو التّواصل والاستمرار، وتبادل المنافع العلميّة وفوائدها، كيفما كانت ماديّة أو معنويّة، حيث أنّ استمراريّة الإنسانية جمعاء، تتطلّب تظافر الجهود، وتضامن الأفراد والجماعات، وتعاونهم في تسخير أمر دِينهم لحل مشاكل دُنياهم (ابن خلدون، المقدمة، 2007: 578 ـ 579)، بتبادل الاجتهادات الفقهية والشرعية بين أقطاب الأمة منهم، الّذين اتّخذوا من المراكز الدينية مَرَاتِعَ علميّة، يتسابقون فيها ويتنافسون، ويستقبلون بها من أراد أن يجاورهم، ويشكل حولهم رباط العلم، ليروي ظمأهم، ويشفي قلبهم بالمعرفة وأصولها.

1.2. المرجعية الدّينية والدُنيوية للمجاورة بالأزهر الشريف عند علماء تلمسان العثمانيّة:

ظل الأزهر الشريف يمثل المرجعيّة الدّينية لعلماء عدوة المغرب عمومًا، والتلمسانيين خاصة، الّذين قصدوه للمجاورة[2] العلميّة بلا هوادة، رغم أنَّ تعدّد أخطار السفر آنذاك (لزغم، (د.ت)، ص: 263)، لم تكن لتمنعهم من طرق أبواب هذا المنشأ الهام، كونه رَمزٌ من رُموزِ الحضارة الإسلاميّة، وقبلة ثقافية قصدها فيما مضى وإلى ذلك الحين، وبعده إلى اليوم، العلماء من كل أوبٍ (الدسوقي، 2012، ص: 46)، كان قد عُرِفَ منهم بهذا الصَّنيع في تلمسان العثمانيّة ليس بالقليل، اخترنا منهم نماذج نستعرضها تبعًا في الآتي:

2.2. الإسهامات العلمية والفكرية لعلماء تلمسان بالأزهر الشريف ما بين 962هـ/ 1555م ـ 1107هـ/ 1699م:

قبل التطرق لهؤلاء العلماء، ولكل ما مسّ حياتهم العلميّة، لا بد من الإشارة إلى أنَّ تيارًا علميًّا زاخرًا بين المشرق والمغرب قد لاح في الأفق، مع أفواج العلماء الذاهبة والآيبة بين القطرين إبان هذه الفترة الزمنية، حتَّى شُبِّه نشاطهم ذلك بحركة سير النمل. ومن بين هؤلاء العلماء نذكر:

---

[2] **المجاورة**: هو مصطلح أطلق في بادئ الأمر على كل رحّالة أحد من بيت الله الحرام مكانًا يركن فيه، ويجاوره، ويعيش قربه، ويباشر فيه حياته العلميّة والأدبيّة، ثم عُمِّم على كل المقدسات الدِّينية والدُّنيوية الموجودة بعواصم البلاد الإسلامية. (عبد الرحيم، 1982، ص: 189).

1.2.2. أبو سليمان داود بن عبد الله البغدادي التلمساني (كان حيا سنة 980هـ/1572م):

أحد علماء تلمسان الأطباء، الذين اختصوا على ما يبدو في العلوم العقلية، ومن الذين ارتحلوا إلى المشرق للاستفادة من علمائه المبرزين في هذه الفترة، وقد كان من بين محطاته إلى هناك، جامعة الأزهر بمصر التي كانت تعج بالعلماء الذين جعلوا من عالم تلمسان هذا، سندًا متواترًا في سردهم للطب النبوي؛ وهذا ما أشار إليه واحد من هؤلاء العلماء أبي القاسم الشفشاوني في دوحته، قائلاً:"الطبيب الماهر، وكان ضريرا أعمى، لقيته بمصر سنة 980هـ/1572م، وكتب الطب تسرد عليه، ومعرفته في الطب عظيمة"(الشفشاوني ، دوحة الناشر، 1977، ص: 19).

2.2.2. أبو الطيب الحسن بن يوسف بن مهدي يحيى بن مهدي بن محمد بن يوسف بن مهدي العبد الوادي ثم الزياتي التلمساني (ت 1023هـ/1614م):

المشهور في تلمسان بـ: "الشيخ الأزهري" وبـ: "ابن مصري" لشدة تعلقه بالأزهر الشريف، حيث أورد أخباره تلك وباقتضاب أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي (ت 1134هـ/ 1722م)، في مخطوطته: "المنح البادية"(ص: 24)، في حد قوله:"(...) أبي الطيب الحسن بن يوسف بن مهدي يحيى بن مهدي بن محمد بن يوسف بن مهدي العبد الوادي ثم الزياتي (...) يعرف في بلاده بابن مصري ويعرف في غيرها به (...)".

3.2.2. أبو العباس أحمد بن محمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش المقري التلمساني (ت1041هـ/1641):

كان محدثًا، وأديبًا، ومؤرخًا، من فقهاء المالكية، ولد بتلمسان (عبد المنعم القاسمي: 2005: 327)، وتوفي بمصر بعد رجوعه من الحج، قضى حياته كلها في التعلم والتَّعليم، فنهل علم الفقه عن عمه أبي عثمان سعيد المقري (كان حيا سنة 1011هـ/ 1611م)[3]، ثم رحل الاسكندرية منذ خروجه من فاس سنة 1027هـ/1617م، قاصدًا حج بيت الله الحرام، وذلك اثر تطاحن أبناء أحمد المنصور السعدي(ت1012هـ/1603م)[4]، فتذرع بأداء فريضة الحج،

---

[3] **أبو عثمان سعيد بن أحمد المقري (كان حيا سنة 1011هـ/ 1611م)**: هو سعيد بن أحمد بن أبي يحيى بن عبد الرحمان بن بلعيش المقري، تلقى العلوم الأولى وهو صبي، فحفظ القرآن الكريم، وألم على مصنفات النحويين من "**أجرومية**" و"**ألفية**" وغيرهما، ثم راح ينهل من مختلف صنوف المعرفة وفنون العلم، حتَّى بلغ شأنا عظيما في الدرس والتّحصيل، ولا سيما في التّوحيد، والفقه، والعربيّة، والأمثال، وأيام العرب، كما برز في العلوم العقليّة من حساب، ومنطق، وفرائض، وهندسة، وطب، وتنجيم، وفلاحة...، توفي على ما يظهر سنة **1011هـ/ 1611م**. (محمد مرتاض، 2004، ص ص 285 ـ 288).

[4] **أبو العباس أحمد المنصور (ت1012هـ/1603م)**: هو أبو العباس أحمد بن محمد المهدي الشيخ بن محمد القائم بأمر الله الزيداني الحسني السعدي، ولد بفاس عام **956هـ/1549م**، كان من المهتمين بالعلم والعلماء، مؤلفا للكتب، ومجالسا للعلماء، فكان الطابع العلمي من أهم مميزات هذا السلطان، إلى جانب معاملاته الدبلوماسية والتجارية التي أنعشت المغرب، توفي مطعونا ليلة الاثنين **16 ربيع الأول عام 1012هـ/24 أوت 1603م**، ودفن بإيزاء الجامع الأعظم

وهو ما لم يصرح به المقري، لكن يفهم مما ورد في بعض مؤلفاته أن تلك الفتنة أزعجته فاضطر إلى الهجرة، ومن ذلك قوله متحدثًا عن هجرته من المغرب: "إنه لما قضى الملك الذي ليس لعبيده في أحكام تعقب أو رد (...)، برحلتي من بلادي ونقلتي عن محل طارفي وتلادي، بقطر المغرب الأقصى الذي تمت محاسنه، لولا مسامرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصا"(المقري، ، ج1، ص: 13).

هذا، وقد ذكرمعاصره عبد الكريم الفكون السياق نفسه عن أسباب ارتحاله إلى مصر، فقال: "(...) وبعد فساد بلد فاس بتبدل دولها بين أولاد أميرها وتداعت للخراب، ارتحل عنها، يقال إنه عن خوف من الأمير الذي تولى إذ ذاك (...)، فنزل بدار الجزائر على فقهائها وعلمائها، وتصدى للتدريس بها وقرأ التفسير على ما قيل في ايام إقامته" (الفكون، منشور الهداية...، 1987، ص: 92).

ولما سافر إلى المشرق واجتاز على تونس، وصحبه منها إمام جامع الزيتونة بها أبو محمد تاج العارفين، فسافرا معًا إلى الحج في البحر، وأقام المقري بالأزهر الشريف (الجنحاني، 1955، ص: 56). منذ أن حلَّ بمصر في جمادى الأولى من عام 1028هـ/1618م، فدرس به مدة الحديث والعقائد (الكتاني، فهرس الفهارس، (ج 1)، 1982، ص: 574)، وهو ما ذكره الشلي في "الجواهر" (2003، ص: 223)، بقوله: "نزيل القاهرة العلامة الحافظ المسند (...)، ما له في سعة الحفظ نضير جنى ثمرات العلوم العقلية والنقلية (...)، وأما فقه المالكية فهو في أجل مسند هنالك. وأما الحديث فقد بوأه الله فيه بركرمه بين العليا والسند. (...)، فألقى بها عصى التيسار، ونفض عن برد همته غبار الأسفار، وأصبح طراز العلوم به مذهبا، ودرس بالجامع، (...) مع الأزهر فنون العلم وتربع واجتبى(...)".

لقد جلس المقري إلى حلقات بعض المشايخ بالمشرق على سبيل المذاكرة وهم: الشيخ نور الدين علي بن زين العابدين الأجهوري(ت1061هـ/1653م) [5]، ونجم الدين محمد بن محمد العامري الغزي (ت1061هـ/1653) [6]،

بفاس الجديدة، ثم نقل على مراكش ودفن في قبور الأشراف قبلى جامع المنصور بالقصبة. (إبن القاضي، المنتقى المقصور ...، (ج1)، 1986، ص ص: 220 ـ 230).

[5]**أبو الحسن علي بن زين العابدين مُحَمَّد بن أَبي مُحَمَّد زين الدّين عَبْد الرَّحْمَن بن علي أَبُو الإرشاد نُور الدّين الأُجْهُوريّ المالكي (ت 1061هـ/1653م)**: هو نور الدين الأجهوري علي بن محمد بن عبد الرحمن بن علي، الملقب بأبي الإرشاد، وهو شيخ المالكية في عصره بالقاهرة،كان محدثاً فقيهاً، له العديد من الكتب، منها "**شرح الدرر السنية**" في نظم السيرة النبويّة...(المحِبِّي، خلاصة الأثر ...، (ج2)، (د.ت)، ص: 59).

[6]**نجم الدين محمد بن محمد بن محمد الغزّي الدمشقي العامري (ت 1061هـ/1653)**: عالم من أهل الشام، ولد في عام **977هـ/ 1570م**، في دمشق، قرأ القرآن على يحيى بن العماد، ولازم العلامة شهاب الدين أحمد العيثاوي وغيره من شيوخ دمشق، حتى برع في العلوم، وتصدر للإفادة والتحديث في المسجد الأموي، وانتهت إليه في عصره رياسة العلم السنية، وقدكان فقيها شافعيا، عالما بالأصول والتفسير والحديث، وله مؤلفات في الأدب والشعر أيضًا، توفي سنة **1061هـ/ 1651م**. (المحِبِّي، خلاصة الأثر ...، (ج1)، (د.ت)، ص: 99).

صاحب "الكواكب السائرة في أعيان المائة العشرة"، وعبد الرؤوف بن تاج الدين المناوي (ت1031هـ/1623م)[7]، كما كان يحضر دروس صهره الشيخ أبو يعقوب يوسف بن عبد الرزاق بن أبي العطا بن وفا (ت 1051هـ/1643م)[8].

وإلى جانب هؤلاء، فقد حكى المقري للشاهيني(ت 1053هـ/1645م)[9]: "(...) أنه قد اجتمع بأبي الغيث القشاش وهو الولي القطب العارف الكامل المرشد قدس الله سره العزيز، وقد كان منذ أربع سنين لم يجتمع بأحد. وقال لي قد ألبسني الخرقة ودعا لي(...)" (ابن شاهين، تقرير عن إقامة المقري بدمشق، الورقة رقم: 6).

هذا، وقيل عنه أنه أفاد أكثر مما استفاد، ومظهر ذلك في مؤلفاته العديدة التي ألفها هناك في العلوم المختلفة، وتلامذته الذين جلسوا إليه وأخذوا عنه علومًا كثيرة وأجازهم فيها، وفي إلتفاف طلبة الأزهر حوله بمجرد وصوله إلى مصر، دليل واضح على مقدرته العلمية التي أتى بها من مدينته تلمسان (الجنحاني، 1955، ص: 66).

ولما اقترب موسم الحج توجه إلى الحرمين الشريفين، فأدى الفريضة، وأقام هناك مدة، ثم عاد إلى مصر في محرم 1029هـ/1619م، فاستوطنوها نهائيًا، وظل يتردد منها على الحرمين الشريفين، فحج خمس مرات، وزار المدينة المنورة خمس مرات، ودمشق مرتين(الجنحاني، 1955، ص: 266)، وعند عزمه على العودة إليها والاستقرار بها في المرة الثالثة وافاه الأجل، على ما ذكره القبرصي (التقرير ....، الورقة رقم: 8)، قائلاً: "(...) وذكر لي أنه رحل إلى الشام زائرا ورجع إلى مصر، وبلغني أنه مشغول بوطنه وأهله، لأنه ترك به زوجا وابنة، فيقال لي إنه مهما تذكر ذلك بكى وحزن (...)". لذلك رجع إلى مصر، فيما اردفه المؤلف السابق، بقوله: "(...) ثم رجع إلى مصر ليأتي بأثاثه وكتبه، ويقضي منها مآربه، فأدركه أجله وتوفي بها السبت خامس عشر جمادى الأولى. ودفن بتربة الأقلة قرب تربة المجاورين" (التقرير ...، الورقة رقم: 8). فيكون بذلك قد قضى حوالي اثني عشر عامًا منتقلاً بين مصر والشام والحجاز (لزغم، (د.ت)، ص: 263).

---

[7]**عبد الرؤوف بن تاج الدين المناوي (ت1031هـ/1623م)**: هو محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين ابن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، زين الدين، المشهور بالمناوي، ولد سنة **952هـ/1544م**، عاش في القاهرة، وتوفي بها سنة **1031هـ/1623م**، اهتم بالبحث والتصنيف، له تآليف كثيرة، منها: "**شرح على تائية ابن الفارض**". (المحِبِّي، خلاصة الأثر ...، (ج1)، (د.ت)، ص: 99).

[8]**أبو يعقوب يوسف بن عبد الرزاق بن أبي العطا بن وفا (ت 1051هـ/1643م)**: هو أبو الإسعاد يوسف بن أبي العطا عبد الرزاق بن أبي المكارم ابن إبراهيم بن وفا، ولد سنة **993هـ/1585م**، وكان كثير الحج، يحج عامًا ويقيم عامًا، وزار القدس والخليل، وله مؤلفات منها "**شرح رسالة الشيخ أبي بكر بن سالم المسماة بنور الحديقة**"، وله ديوان شعر جليل، وغير ذلك من المؤلفات، وكانت وفاته ليلة الأحد، من صفر سنة **1051هـ/1643م**. (المحِبِّي، خلاصة الأثر ...، (ج4)، (د.ت)، ص: 74).

[9]**أبو العباس أحمد بن شاهين القبرصي (ت 1053هـ/1645م)**: ترك والده قبرص وسكن دمشق، فولد الشاعر بها سنة **995هـ/1587م**، وتتلمذ على يد والده، ثم التحق بالجيش العثماني، أسر في احدى المعارك ثم أطلق سراحه، فانصرف إلى الأدب وعرف حينها بالشاهيني نسبة إلى والده، تولى القضاء في الركب الشامي إلى الحج، كان الشاهيني شاعرا ويهتم بعلم الكمياء، ترك مؤلفات منها: "**كتاب في اللغة**"، و"**مختصر للقاموس المحيط**"، و"**ديوان شعر**"، توفي الشاهيني في شوال سنة **1053هـ/1645م**، ودفن في مقبرة الفراديس بدمشق. (ابن شاهين، تقرير عن إقامة المقري بدمشق، الورقة رقم: 9).

4.2.2. أبو علي الحسن بن علي التلمساني (كان حيا سنة 1060هـ/1650م):

محدث من كبار العلماء، تعلم بتلمسان، ثم رحل إلى المشرق فأخذ عن علماء الحجاز ومصر، وعاد لتلمسانالتي وافاه الأجل بها (موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، 2002، ص: 199).

5.2.2. أبو العباس أحمد بن محمد بن حمدان التلمساني القصري (ت 1018هـ/ 1610م):

من بين ما وصل إلينا عن سيرة ومسيرة هذا العالم استنادًا إلى بعض المراجع المتخصصة، أنه كان وليًا صالحًا وعلامةً فقيهًا،ومحدثًا متمكنًا، من غير تطرقها لتاريخ ومكان ولادتهِ، ولا نشأتهِ وتعليمهِ، ولا العلماء والفقهاء الذين تتلمذ علي أيديهم وأخذ عنهم، إلا أنها أشارت لأصله أنه كان من علماء تلمسان،وتوفي سنة 1018هـ/ 1610م، بمدينة القصر الكبير بالمغرب الأقصى مكان هجرته(الكتاني، فهرس الفهارس، (ج 1)، 1982، ص: 151)، على ما أورده الكتاني في فهرس الفهارس((ج 1)، 1982، ص: 151)، بقوله: «العلامة المحدث الحافظ الراوي دفين مدينة القصر الكبير، وأحد أعلامها (...)».

ومن جانب آخر فقد جمعته علاقة متينة مع العالمين الشهيرين أبي عبد الله الكنيكسي، وأبي العباس الهشتوري، فتوجهوا جميعا إلى الشرق لطلب العلم، كما يبدو أنهم قد حملوا معهم من علم الحديث والسند ما كان قد فقد في المشرق بناءًا على ما ذكره الكتاني في المؤلف السابق ((ج 1)، 1982، ص: 151). وعن هذا السند ورد في المؤلف نفسه: «واشتهر في مصر أدخله إليها الهشتوري وابن حمدان التلمساني والكنيكسي، أخذ عنهم الدمنهوري والمولاوي والجوهري(...)» ((ج 1)، 1982، ص: 151).

ولما عاد التلمساني من المشرق استقر هو وصديقه الكنيكسي بالقصر الكبير، يعقد مجالس العلم إلى أن توفي ودفن بها، ليصبح ضريحه إلى اليوم مزارًابالقصر الكبير، سمي بـ: «ضريح القصري» أو «التلمساني»[10].

هذا،وحسب الكتاني أن قليل من أهل المدينة المذكورة من يعرف أنه إمام في الحديث((ج 1)، 1982، ص: 151).

---

[10] **ضريح القصري**: هو ضريح سيدي أحمد التلمساني، أحد العلماء الصلحاء، ممن قدموا للمدينة علمهم وإرشادهم، مقبلين على القصر الكبير من تلمسان. ويوجد ضريحه وسط المدينة المذكورة، حيث قال عنه الأستاذ محمد أخريف، ضمن مقال له بعنوانه «**إطلالة على أولياء مدينة القصر الكبير**»: «**يوجد هذا الضريح بطريق الزنيدية، وهو مشهور، ويقال أنه من أناس يدعون بالتلمسانيين بقبيلة سماتة بمدشر تولة من الشرفاء السليمانيون**»، ويمتاز هذا الضريح بواجهة أثرية أضيفت عليها المقرنصات، والقوس العربي، والباب الخشبية جمالاً أخاذًا، وربما لهذا أثار إعجاب الشاعر الإسباني «**انطونيو رودريگيز گوردييالة**»، فأوحى له بقصيدة عنوانها «**باب سيدي التلمساني بالقصر الكبير**» أهداها إلى «**أومبيرطو فيرنانديس كورطاريكو**»، صاحب كتاب: «**القصر الكبير 1950م**». (الطود، 2004، ص: 82).

6.2.2. أبو عبد الله محمد بن عبد الله التلمساني (القرن 11هـ/17م):

لم يصلنا الشيء الكثير في ترجمته، إلا أننا أردنا إضافته لنبرز التواصل العلمي القائم بين تلمسان والمشرق،حيث كان مِمَّن رحل إلى الأزهر الشريف، فأخذ هناك عن شيوخ مغاربة ومشارقة، منهم ثلة قليلة من العلماء الأزهريين (الكتاني، (ج 1)، 1982، ص: 164).

الخاتمة:

ما يسعنا أن نقوله في الأخير، حول ما سبق عرضه حول الرِّحلات العلمية التلمسانية الوافدة على الأزهر الشريف ودورها في ربط أواصر التواصل الثقافي بين المشرق والمغرب ما بين 962هـ/ 1555م ـ 1107هـ/ 1699م، أنّها مرحلة تاريخية خصبة من تاريخ تلمسان الثقافي، في سبيل إبراز بعض منجزات علمائها، والبرهنة على تفوقهم وأصالتهم العلميّة بالأزهر الشريف، باستعراض نماذج منهم ولو بصورة موجزة، استنتجنا على ضوئها جملة نتائج، ملخصها في الآتي:

ـ تعد المجاورة العلميّة للمقدسات الدِّينية والدُّنيوية من أهم ما دَأبَ عليه علماء تلمسان من جهة، ودفعهم من جهة أخرى إلى الوفود على حواضر مصر العثمانيّة ومؤسساتها التعليمية التي كان يسودها مناخ ثقافي يستقطب إليها العام والخاص، في فترة زمنية استثنائية لقي فيها هؤلاء العلماء من قبل حكام مصر العثمانيين الترحيب، وكل ما يلزم في مقام علو شأنهم، مهيئين لهم البساط لأنشطتهم العلمية، وغيرها ممَّا لم ينالوه في مدينتهم تلمسان الّتي كانت تعيش ركودًا علميًّا، وعدم إهتمام ثقافي من جانب ساستها الأتراك.

ـ عرفت السنوات الممتدة من 962هـ/ 1555محتى1107هـ/ 1699م، رِّحلات علميّة حجازية تلمسانيّة كثيفة، بغية أداء فريضة الحج، ومواصلة تشكيل رباط العلم خاصة حول أساتذة وشيوخ الأزهر الشريف، الّذي حلُّوا به طلبةً ودارسينَ، وفي أحيان أخرى مُدرِّسين، يُجِيزُون ويستجازون في أمَّهات الكتب الفقهيّة، وعبر مختلف المجالس العلميّة، وحلقات المناظرة والتّدريس، الّتي سُجِّلت ودُوِّنت في كتب التراجم، لرقيِّها وأصالتها، وجدِّية محتواها في المنهج والتّلقين، والتبحر في المعرفة وفنون العلوم، أمسوا على اثرها حلقة وصل أساسية بين المشيخة وطلابها في المشرق والمغرب، وسند متواتر حازه جمهور العلماء بتلمسان، في ظل منافسة شرسة وشريفة من علماء وقتهم في تلك الأصقاع، محصلين بذلك رِّفعة ووقار علمي من كافة أهل العلم في حواضر البلاد الإسلاميّة.

كان للتواصل الثقافي بين المشرق والمغرب أثر كبير في ازدهار الحركة العلميّة وتقوية روابطها بتلمسان، فقد كان أولئك العلماء التلمسانيين الراحلين إلى المشرق، يحملون معهم كثيراً من العلوم والمعارف المختلفة، إلى جانب أعداد كبيرة

من المصنفات، والتآليف، في شتى ميادين العلوم وفروعها، وكان لهذا اللون من النشاط العلميّ ثمرتان مباركتان، هما ما يحمله العالم في صدره من علم ومعرفة، وما ينقله معه إلى موطنه من كتب قيّمة، زادت لا محال من النشاط العلميّ في تلمسان بصورة سريعة ومتنامية في الفترة العثمانية.

البيبليوغرافيا:

1. ـ الجنحاني الحبيب، (1955)، المقري صاحب نفح الطيب ـ دراسة تحليلية ـ، دار الكتب الشرقية، تونس.
2. ـ إبن خلدون أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/ 1403م)، (2007)، المقدمة، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، لبنان.
3. ـ الدسوقي وائل إبراهيم، (2012)، التاريخ الثقافي لمصر الحديثة «المؤسسات العلمية والثقافية في القرن التاسع عشر»، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة.
4. ـ الشفشاوني أبو القاسم محمد بن علي بن عسكر الحسني العلمي (ت 986هـ/ 1578م)، (1977)، دوحة الناشر بمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق: محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط.
5. ـ الشِّلّي جمال الدين محمد بن أبي بكر بن أحمد الحسيني باعلوي (ت 1093هـ/ 1682)، (2003)، عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر، تحقيق: المقحفي إبراهيم أحمد، مكتبة الإرشاد، صنعاء.
6. ـ الطود محمد المهدي الحسني، (2004)، القصر الكبير ورجالاته عبر التاريخ، مطبعة طوب بريس ـ الرباط.
7. ـ ـ الفاسي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر (ت 1134 هـ / 1722 م)، مخطوط: المنح البادية في الأسانيد العالية والمسلسلات الزاهية والطرق الهادية الكافية، مكتبة الأزهرية، يحمل رقم: 53083.
8. ـ الفكون أبو الحسن عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن قاسم بن يحيى التميمي (ت 1070هـ/ 1665م)، (1987)، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق: سعد الله أبي القاسم، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
9. ـ القبرصي أبو العباس أحمد بن شاهين (ت 1053هـ/1645م)، مخطوط: تقرير عن إقامة المقري بدمشق، مكتبة جامعة لايبزغ الألمانية، مجموع رقم: D.C 323.06، يحمل رقم: 0863.06، الورقة رقم: 9.
10. ـ إبن القاضي أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي الفاسي (ت 1056هـ/ 1651م)،(1986)،المنتقى المقصور على مآثر مولانا المنصور، (ج1)، دراسة وتح: محمد رزوق، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط.
11. ـ الكتاني عبد الله الكبير، (1982)، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، (ج 1)، دار الغرب الاسلامي، بيروت.
12. ـ خفاجي محمد عبد المنعم، علي صبح علي، (2012)، الأزهر في ألف عام، (ج1)، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة.
13. ـ المقري شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت1041هـ/ 1631م)، (1998)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، (ج2)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر العربي، بيروت.
14. ـ المدني أحمد توفيق، (1986)، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766م ـ 1791م سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

15.ـ المحِبِّي أبو عبد الله محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد الحموي (ت 1111هـ/ 1711م)، (د.ت)، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، (ج2)، طبعة حجرية، الرباط.

16.ـ (موسوعة)، (2002)، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، دار النهضة، الجزائر.

17.ـ إبن منظور أبو عبد الله محمد مكرم بن علي المصري (ت 711هـ/ 1311م)، (1990)، لسان العرب، (ج24)، دار الصادر، بيروت.

18.ـ الموافي ناصر عبد الرزاق، (1995)، الرحلة في الأدب العربي، مكتبة الوفاء، القاهرة.

19.ـ عبد الرحيم عبد الرحيم عبد الرحمان، (1982)، المغاربة في مصر في العصر العثماني 1517م / 1798م دراسة في تأثير الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

20.ـ عبد المعطي حسام محمد، (2008)، العائلة والثروة، البيوتات التجارية المغربية في مصر العثمانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

21.ـ لزغم فوزية، (د.ت)، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية 1520م ـ 1830م، مخبر مخطوطات الحضارة الاسلامية في شمال إفريقيا، وهران.

22.ـ محمد فهيم حسين، (1978)، أدب الرحلات، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

23.ـ مرتاض محمد، 2004، من أعلام تلمسان ـ مقاربة تاريخية فنية ـ، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران.

24.ـ نواب عواطف محمد يوسف، (1996)، الرحلات المغربية والأندلسية ـ دراسة تحليلية مقارنة ـ، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.